مخطوطات قسنطينة ومصيرها بعد سقوط المدينة في سنة 1837م

د. جيلالي صاري

كباقي المدن الجزائرية الأخرى ، كانت عاصمة الباي الحاج أحمد ـ قسنطينة ـ تفتخر بكثرة المكتبات العمومية والخاصة ، وكل ما يمثل الاشعاع الثقافي من مساجد وأماكن لحفظ كتاب الله تعالى ، وهل نستطيع الآن بعد مضي تلك الليلة الحالكة للاستعمار أن نسلط الأضواء على ذلك التراث ؟

حاولنا اخيرا أن نعالج هذا الموضوع الهام ونحن نعبر مرحلة حاسمة من البناء ، فعثرنا على معلومات قيمة وان لم تكن شاملة ، نقدمها فيما يلي ، فالوثيقة الأولى تعود الى المحافظ الأول لمكتبة الجزائر في أوائل الاحتلال الفرنسي ، وهو Berbrugger الذي أتيحت له الفرصة أن يجمع شخصيا بقدر الامكان مجموعة من المخطوطات لينقذها من أيدي الاتلاف والدمار ، وأما الوثيقة الثانية فهي عبارة عن تقرير رسمي حرره المستشرق De Slane وأرسله الى وزير التعليم العام بباريس آنذاك وبالضبط بعد ثمان سنوات بعد سقوط قسنطينة .

وفيما يلي نتناول النقط التالية :

ـ حصيلة ابحاث محافظ مكتبة الجزائر .

ـ محتوى تقرير المستشرق .

ـ اهمية المخطوطات .

1 ـ حصيلة أبحاث محافظ مكتبة الجزائر :

لقد كلف هذا المحافظ بمهمة صعبة أي بدون توفير الوسائل لنقل المخطوطات أثناء الاستيلاء على المدينة وذلك في شهر نوفمبر 1837 ، فرفض الجنرال Valée أن يقدم له المعونة ..

وزيادة على ذلك فان المحافظ لم يتوصل بعد الى جمع كل المخطوطات التي بقيت مهددة بالدمار والنهب والحريق ، وخاصة وأن احدى المؤسسات العمومية وهي اقامة ابن عيسى ـ وهو أحد ضباط الباي ـ قد أصيبت بأضرار فادحة وحولت حينا الى مستشفى ، وهي تأوي العديد من المخطوطات (1) .

وأما النهب فقد تعمم لا من طرف الجنود والضباط فحسب بل حتى من طرف الجالية اليهودية كما أكد ذلك الضابط الحكيم Sédillot (2) ، وبالرغم من هذه الظروف فان المحافظ لم يتوصل الى انقاذ المخطوطات كلها لأنه بعدما جمع القدر الممكن تعرض الى مشكلة النقل وظل يستعين الضباط ، وبعد تذليله العقبات وأثناء السفر ضاعت ثلاثة صناديق ... وهكذا فانه لم يسلم الى مكتبة الجزائر الا 700 مخطوط بعد ما أن جمع حوالي 800 مخطوط في عين المكان .

وعلى كل فان العدد الذي احتفظت به مكتبة العاصمة لا يمثل الا قسما ضئيلا من التراث القسنطيني اذ أن هناك عدد لا بأس به قد سلم الى المكتبات الفرنسية من طرف الضباط كما اعترف بذلك Esquer بالاضافة الى القسم الذي اتلف نهائيا أثناء العمليات العسكرية وكذلك النهب ...

وكل هذا يتعلق بصفة عامة بالمكتبات العمومية ، وذلك أن المكتبات الخاصة يبدو وانها نجت من الضياع حسب تقرير De Slane (3) .

وعلى كل بعد هذه الحوادث أصبحت مساجد المدينة فارغة لا تملك أية وثيقة كما لاحظ ذلك في سنة 1845 نفس المستشرق ، وكان عددها

---

(1) F. Laloe : A propos de l'incendie de la bibliothèque d'Alexandrie par les Arabes - Les manuscrits arabes de Constantine, Revue africaine, Alger, 1925, p. 95-107.

(2) Sédillot : Campagne de Constantine de 1837, Paris, 1838, p. 252.

(3) De Slane : Rapport adressé à Monsieur le Ministre de l'Instruction Publique, 31 juillet 1845.

آنذاك 13 وهي المسجد الكبير ، ومسجد عبد الرحيم ، ومسجد سيدي عبد القادر ، ومسجد الجسمين ، ومسجد الباي ، ومسجد سيدي الكتاني ، ومسجد سوق الصوف ، ومسجد القصبة ، ومسجد القنطرة، ومسجد سيدي بولمبا ، ومسجد بو لمدا ، ومسجد سيدي البلازي .

كما أن نفس المستشرق يؤكد ايضا وجود عدد كبير من البيوت الخاصة لحفظ القرآن عبر المدينة .

2 ـ محتوى تقرير المستشرق :

لقد قام المستشرق de Clane بزيارة المكتبات الخاصة وذلك في اطار المهمة الرسمية التي كلف بها في سنة 1845 وقد واصل ابحاثه في أربع مكاتب ، الأولى وهي الرئيسية تتعلق بمكتبة المدعـو سيدي حمودة ، وهي شخصية بارزة تنتمي الى اعيان المدينة وبالضبط الى عائلة ابن لفقون ، وثروة هذه المكتبة قدرت بحوالي 2500 مخطوط وهي كلها في وضعية جيدة وذات زخرفة وقد قام المستشرق بالاطلاع عليها طويلا اذ انه سمح له بذلك طيلة 5 أسابيع فخصص لكل مخطوط معلومات تحتوي العنوان والمؤلف ... وأغلبها تتعلق بأصول الدين والفقه ، واقلية تختص بالتاريخ والرياضيات .

وأما المكتبة الثانية فهي مكتبة السيد الباشترزي وقـد بلغ عدد المخطوطات بها حوالي 500 مخطوط وهي الأخرى تعالج أصول الدين والفقه ومن أهمها يجب ذكر عنوانين : معارف ابن قتيبة وتعليق ابن نفطة المتعلق بشعر ابن زيدون .

واهمية المكتبتين الأخيرتين فانهما لم تذكر وأغلبية المواضيع المعالجة في المخطوطات هي نفس ما ذكر ، أي أصول الدين والفقه والنحو .

وهكذا فان هذه المكتبات الاربعة قد نجت من الاتلاف والنهب ومن دون شك أنها ليست الوحيدة بل هناك مكتبات أخـرى خاصة ومتواضعة بقيت للوجود وحبذا لو سمح أصحابها بتسجيل العناوين ...

وفي آخر تقريره أشار المستشرق الى وجود مجموعة اخـرى من المخطوطات في الريف ، وقد قدرها بحوالي 500 مخطوط (4) .

---

4 ـ نفس المصدر المذكور أعلاه .

3 ـ اهمية المخطوطات :

للمخطوطات التي بقيت الى الوجود أهمية كبرى فهي لا تتمثل فقط في كميتها بل في قيمتها العلمية والثقافية اذ أنها مرآة صادقة للنشاط الذي كانت مصدرها ومنشطة بالدرجة الأولى ولذا علينا أن نعالج هذا الموضوع حتى نفند وجهة المحتل الذي كاد أن يقضي عليها نهائيا بحربها وبهيمنته طيلة ما يزيد عن قرن .

1 ـ مضمون المخطوطات :

ان ما سلمه المحافظ وما صنفه المستشرق لا يمثلان الاقسما من مجموع ما كانت تزخر به عاصمة الشرق ، ويصعب على الملاحظ النزيه أن يدرك الآن ذلك فبالنسبة لكمية المخطوطات الموجودة آنذاك في المكتبات العمومية فان العدد الذي سلم الى مكتبة الجزائر بعد سقوط قسنطينة وهو حوالي 700 فهو كل ما أنقذ من الضياع والنهب والاتلاف بينما أن هناك كميات أخرى سلمت الى المكتبات الفرنسية وهي كل الهدايا التي قدمت من طرف الضباط الذين شاركوا في غزو قسنطينة ، ومن المعلوم أن ما سلم الى هذه المكتبات انما هو جزء من الغنيمة اذ أن الضباط قد احتفظوا بعدد بعد ما أن منحوا الجزء الآخر .

وزيادة على ذلك وكما أشرنا اليه أعلاه فان المحافظ Berbrugger لم يتمكن من جمع كل ما عثر عليه بعد المعركة وهكذا ضاع من دون شك أكثر من ذلك أي اكثر من 800 مخطوط والمجموع يتجاوز من دون شك الالفين على اقل تقدير .

وأما ما يتعلق بالمخطوطات الخاصة فان المستشرق قد قدرها بالأقل بما يزيد عن 3000 مخطوط (2500 لسيدي حمودة و 500 للباشترزي وعدد آخر للمكتبتين الآخريين) ، وهكذا يرتفع المجموع المحصي عن 5000 مخطوط وقد يصل من دون شك الى حوالي الضعف خاصة وأن عدد المثقفين بالمدينة أي قبيل الاحتلال كما سنبينه كان مرتفعا ... هذا اذا قارنا هذا المجموع بعدد سكان المدينة وكان يقدر بما يتراوح ما بين 25.000 و 30.000 نسمة سنة 1830 فان النسبة تتراوح ما بين مخطوط لكل ثلاثة أشخاص ومخطوطين لخمس اشخاص ، وهي نسبة هامة قلما نجدها في أهم مدن أوروبا آنذاك .

2 ـ قيمة المخطوطات العلمية والثقافية :

ان الكمية وحدها تبين الاهتمام بالمعرفة بالرغم من الظـروف العامة الغير ملائمة بصفة عامة ، وعلى كل فهي تؤكد من جديد تعلق الوسط الاسلامي بالثقافة والعلم والارتباط بالغنى الفكري والروحي .

فمعظم المحتوى عبارة عن ما يطلب من كل ذي ثقافة عامة اي ان هذه الوثائق تعالج كل ما يتعلق بأصول الدين والفقه ، من احاديث نبوية وتعاليق لهذه الأحاديث وكذلك تفسير القرآن ، كما يضاف اليها أيضا المواد الاخرى التابعة للثقافة الدينية والتي برز فيهـــا رجال الفكر في القرون الوسطى ونعني بذلك التاريخ والجغـــرافيا وفن الرياضـيات مع العلم أن ما يمس بالدرجة الأولى اللغة نفسها الا وهو موجود ، اي النحو والصرف .

وبالفعل فان المستشرق ، صاحب ترجمة ابن خلدون قد لاحظ هذا كله وبينه بتفصيل في تقريره الموجه الى وزير التعليم ، ومن أهم العناوين التي ذكرها يجدر بنا ابراز ما يلي باختصار : تاريخ العباسيين ، معارف ابن قتيبة ، تاريخ ابن زيان لابن عبد الخليل التنسي ، جغرافية ابن الوردي ، غزو الشام للواقدي ، تاريخ المملكة العثمانية ، وفي مجال آخر نجد كتاب الأغاني ، تعليق للمعلقات ...

وزيادة على ذلك فان هذه الوثائق كانت في متناول الجميع بالنسبة لمكتبات المساجد ، فكل من يدخل بيت الله وله رغبة في المطالعـة الا ويستطيع أن يتمتع بها ويقضي الوقت الطويل في قراءتها ، بينما الآن وطيلة العهد الفارط كنا لا نجد الا القرآن وبعض التفسير فقط ، وكانت هذه الكتب قليلة جدا ، وهكذا يبرز لنا الفرق كل الفرق بين الماضي وعهد الاحتلال ...

هذا ومعظم الوثائق التابعة للمكتبات العامة تحمـل خاتم صالح باي وكذلك خاتم ابن العربي ، وهو أحد قضاة المدينة ، وهكذا تتجلى قيمة الرجلين وحرصهما على المعرفة والثقافة ومثل هذه الملاحظة تطرح أسئلة لا نستطيع أن نجيب عنها مثلا : أهذا الخاتم يعني اعتراف بالجميل أم هو مجرد علامة لاحصاء ؟ واذا كان الخاتم هبة من الرجلـــين ، فأين المخطوطات التي سبقت هذا العهد ، أي عهد صالح باي وابن العربي ؟

الخــــلاصـــــة :

وهكذا وبفضل الوثيقتين توصلنا الى اعطاء نظرة عامة عن هذا التراث الهام بالرغم من الأخطار المتعددة التي أصابت جل المكتبات العمومية ، ومهما يكن من أمر فان عدد المخطوطات الذي تم احصاؤه سواء في الميدان العام أو في الميدان الخاص يبين لنا تعلق السكان بالنشاط الثقافي ومدى اهتمامهم بكل ما ييسر الطريق المستقيم ، كما أن عدد المساجد من جهة وعدد أماكن تعليم القرآن وقد قدرها الجنرال (5) Bedeau بـ 86 في 1837 ، من جهة أخرى ، تبين بوضوح توفر التعليم خاصة وأنه لم تضع حواجز لتحديد المعرفة ، فنظام التعليم كان في متناول الأغلبيات كما يبرهن عن ذلك كثرة أملاك الأوقاف ...

ولم تمر الا سنوات محدودة عن سقوط المدينة حتى تدهورت الأوضاع الثقافية كما لاحظ ذلك جل الملاحظين في منتصف القرن التاسع عشر(6) فلقد انخفض عدد أماكن تعليم القرآن من 86 الى 30 اي أكثر من النصف كما أن عدد الطلبة قد انخفض من 600 الى 60 ، ومثل هذه الوضعية قد تعممت عبر باقي المدن ...

وهكذا علينا أن نسعى كل السعي على جمع ما تبقى من ذلك التراث لأن الدهر لم يقض عليها نهائيا فهو اصدق برهان لتاريخنا الثقافي .

جيلالي صاري

---

(5) Ageron : Les Algériens Musulmans et la France, Paris 1968, t. I, p. 318.

6 ـ نفس المصدر في الجزء الأول ، الصفحة 318 .